الدكتور سليم حيدر ناقداً فنّياً

ساسين عساف

عبرين 2022/5/22

قرأت الدكتور **سليم حيدر** مرّتين، قرأته سياسياً بعنوان: سليم حيدر ونداء الحاضر، من خلال كتّيب عنوانه: مواقف وآراء سياسية، صدر سنة 1969، وذلك وفق العناوين الفرعية الآتية: بناء دولة الحقّ، إعادة تكوين السلطة، مواجهة التحدّي الإسرائيلي، قضيّة الإنتماء (لبناني/عروبي، وطني/قومي) وقرأته تربوياً بعنوان: سليم حيدر والتعمير من الأساس، رؤية في تعمير لبنان أساسها التكوين المدرسي، وذلك من خلال محاضرة ألقاها في بيروت بتاريخ 17 كانون الثاني 1949 بدعوة من الندوة اللبنانية... وها اليوم أقرؤه ناقداً فنّياً من خلال نصّ عنوانه "الكلمة" ألقاه في "كلية الشرق الأوسط: البوشرية" بتاريخ 1954/11/24

"الكلمة حلقة اتّصال بين الفكر والحياة.."

يبدأ **سليم حيدر** بطرح ما للكلمة من أهمّية في تحويل الفكر إلى واقع حي. فالفكر بدون الكلمة هباء، هيولى، مادّة سديمية، لا كيان لها ولا وجود كما تقول الفلسفة، والكلمة هي وسيلته إلى الكينونة، إلى الوجود، إنّه يتكيّن مع الكلمة وبها ومنها يستمدّ وجوده. بهذا المعنى تكون الكلمة وسيلة انتظام الوجود فمعها ومنها وبها كما قلت تسقط محالية الوجود ويتبدّد السّديم وتأخذ الهيولى شكلها كما المادّة المبعثرة والمشوّشة انتظامها واتّضاحها.

يقول **سليم حيدر**:

"ذرات الفكر والشعور والخيال خليط لا معنى له ولا لون ولا شكل تتدافع على غير هدى إلى مصفاة الوعي حيث يتحقّق كلّ منها كياناً مستقلّاً واضح الهدف." (مادة منعدمة الوجود لا معنى لا لون لا شكل لها، مشوّشة بلا هدف إلى أن يشكّلها الوعي واضحة بالكلمة ما يعني أنّ سليم حيدر هو من القائلين بأنّ الكتابة صناعة واعية)

ثمّ يضيف:

"واضحة في الوعي ومكنونة كما كانت غير واضحة في اللاوعي، فإذا صبّت في قالب الكلمة خرجت من حيّز الطاقة إلى حيّز الوجود."

هذا الكلام يرسم أمامنا جدلية الوعي واللاّوعي في الكتابة، وهو في شقّ منه من اختصاص سيكولوجيا اللغة (**جاك لاكان**: الفنّ سلوك فردي، السلوك ليس التصرّف فقط بل الإبداع أيضاً) التي هي العلم الذي يعالج المكنون والمكبوت في اللاوعي (**فرويد**: اللغة دائماً لها منطقها حتى حين لا يدركها المنطق، ومنطق اللغة هذا الذي لا يدركه المنطق بلغ مع الشعراء السرياليين درجة الهذيان والجنون باعتمادهم الكتابة الآلية وفق ما أسموه تداعيات الأفكار، **أندريه بريتون** في بيان السريالية)

وهذا الكلام في شقّ آخر من اختصاص الفلسفة (**أرسطو**)

الكلمة طاقة شحن لأنّها تحتوي الفكر (الوجود بالقوّة) وهي طاقة تعبير لأنّها تؤدّيه بالصورة فيمسي وجوداً بالفعل. وهذا ما يحيلنا إلى فلسفة **أرسطو** القائلة بأنّ الوجود بالقوّة هو وجود هيولي بحيث تكون المادة بدون هويّة أو هيئة أو كيان. أمّا الوجود بالفعل فهو المادة وقد وجدت هويّتها أو هيئتها أو كيانها بالكلمة.. هنا الكلمة تبدو قوّة خلق.. قوّة بناء..

ثمّ يضيف **سليم حيدر** ما يؤكّد قوّة بنائها أو قدرتها على الخلق:

"الكلمة، إذن وجود، أو هي وسيلة الوجود.."

يقول الناقد الإيطالي **بينيديتو كروتشي** ما يأتلف وحكم الدكتور **سليم حيدر** وما ترجمته: "الفكر ليس فكراً (أي منعدم الوجود) ما لم يتشكّل بكلمات." ثمّ يضيف ما مؤدّاه أنّ الفكر يولد ولادة تلك الكلمات" (ولادة واحدة متزامنة)

وعلماء النفس، أمثال **جاك لاكان**، يرون الشيء نفسه إذ يقولون أنّه لا وجود للفكر بدون لغة... الفكر المجرّد لا وجود له إلّا بالكلمة.. فالكلمة طاقة تكوين نفسي وفكري.

و**سليم حيدر** بدوره يضيف إلى طاقة الكلمة على الخلق والتكوين طاقتها على الإبقاء والإدامة، يقول:

"إذا تساءلنا عن الأفكار، الأحاسيس، الخيالات التي بقيت في حيّز الطاقة (الكمون) ولم تخرج يوماً إلى حيّز الوجود، ظهر أنّ الكلمة وسيلة البقاء الفضلى."

الأفكار لا وجود لها خارج إطار الصورة التي ترسمها الكلمة فالكلمة طاقة تصويرية حيوية ما أن تلفظ أو تكتب حتى تنقل إلى السامع أو القارئ أو الرائي صورة محمولها. إنّها وسيلة تجسّد وضمانة بقاء لكلّ ما يعتمل في بواطن النفوس والعقول.

ويضيف لمزيد من الإيضاح:

"الكلمة وسيلة الوجود ووسيلة البقاء... الكلمة حركة وحياة، وفعل دائم في الحياة.."

شرطها أن تأخذ الروح منها سكناها لكي تفعل في الحياة وتبقى، فهي أكثر من إطار يحتضن معنى بل هي المعنى نفسه أي كما ورد في نص الدكتور **سليم حيدر** حركة وحياة. الحركة هي رمز عملها والحياة هي رمز بقائها.

فالكلمة هي هيئة الفكر ومادّته في آن (جمالية **هيجل**: الكلمة والفكر أو الشعور حقيقة عضوية واحدة). إنّها مولودة الفكر البشري ووسيلة تظهيره وتعبيره ودفعه إلى الوجود والبقاء. هي تهبه الهيئة (الوجود) وهو يمنحها المعنى (الحياة، الروح الفاعلة في الحياة تجد سكناها في قالب الحرف، يعتبر **برغسون** أنّ الروح هي أصل جميع الأشياء، وهي الدافع الحيوي فيها، وهو في هذا على مذهب **أفلوطين**..) فتنتقل من كونها صورة من أحرف جامدة إلى وجود حيّ، وهذا ما يعبّر عنه بوضوح **سليم حيدر** بقوله:

"الفنّ السامي يجعل الروح لاصقة بالحرف بحيث تصبح الكلمة حياة.."

للكلمة حيوات خاصّة تتوالد وفق منظومات علائقية خاصة (في الأدب السريالي التداعي الحرّ في الكتابة الآلية هو أساس إنبنائها) النقد الفلسفي الأونطولوجي يساعد على فكفكتها وفهمها.

الكلمة، إذاً، ليست بنية شكلية خاوية فلكلّ كلمة حياة موسومة بهويّة معانيها (أفكار، مشاعر، خيال.. كما يحدّدها **سليم حيدر**) وهي بالتعاون مع غيرها من الكلمات (وهذا ما يشبّهه **سليم حيدر** باصطفاف العسكرفي كلامه على الحروف التي تتشكّل منها الكلمة الناطقة) تتحوّل إلى عنصر تركيبي في سياق أو نسق فتفقد معناها المعجمي لتكتسب هويات معانيها الحيّة والمتحوّلة (نظرية **شومسكي** التحويلية).

نظرية النظم عند **الجرجاني** تخرج الكلمة من هويّتها المعجمية لتدخلها في هوية تركيبية أو نظام تركيبي متناسق.

كلّ كلمة تسهم في بناء الكلمات الأخرى وبالعكس، فتجد هويّة معناها في مفعولها التفاعلي أو قوّتها التفاعلية. (نظرية **جاك لاكان**)

حيويّة السياق من حيوية الكلمات التي انتظمت فيه وشكّلته كلّاً واحداً ذا دورة بيولوجية واحدة (النقد الأونطولوجي يساعد على فهم هذا الكلّ العضوي المتآلف.)

جاء في نصّ الدكتتور **سليم حيدر** ما يلي:

" الكلمة أكثر من قالب.. إنّها حركة وحياة، تعمل وتبقى.."

إنّها كائن حيّ (في دراسة لي بعنوان **عبدالله العلايلي**: الموقف والمنهج، أبنت، من خلال "المرجع"، مفهومه للّغة باعتبارها كائناً بيولوجياً، جسماً حيّاً كما يقول، وبأنّها ليست خارج القانون البيولوجي) وهذا ما يراه **كولردج**: الكلمات المنتظمة في سياق شبيهة بالأجهزة العضوية الحيّة.. والسياق ينمو كما النبتات الحيّة صاهراً عناصر متعدّدة في جوهره الخاص كما الشجرة تمتصّ العناصر الأربعة التي حدّدها **فلاسفة إيونيا**: التراب والماء والهواء والنور، كي تصهرها وتكوّن وتستنفد شكلها النهائي بقدر ما تسمح به حيويّتها الداخلية.. هكذا،

تتشكّل السياقات من الداخل وليس بقوالب خارجية، من داخل الكلمة/البدء، الكلمة/الأصل، الكلمة/الجوهر، الكلمة/النبوءة العجائبية التي عاد إليها السرياليون في تطبيقهم لنظرية الخلق من عدم (**مالارميه**) حيث الكلمة لا تحمل هويّة غير هويّتها، الهويّة التي يمنحها إيّاها الشاعر الخالق..

ولأنّها "حركة وحياة تعمل وتبقى" وفق تعبير **سليم حيدر فهي "مقدّسة" أو يجب أن تكون (يشير بوضوح إلى الكلمة المخطوطة)** وهي مقدّسة في نظره لأنّها إرادة الله (في البدء كانت الكلمة) معنى المقدّس شرطه الفعل والحضور الدائمين... ثمّ كانت دعوته لذوي الأقلام إلى تقديس الكلمة.

تقديس الكلمة من مبادئ الفنّ السامي أو الجليل (**لونجينوس**، رسالة في الجليل) والفنّ الصافي (**الأبّي بريمون**) وهو من مبادئ الروحانية المثالية (**مالارميه**) حيث الفن هو عمل روحاني (**آرنولد هاوسر**).. الكلمة في هذا

العمل إشراقية صوفية، ضوئيّة منبثقة من وهج الروح وأسرار المقدّس. (الإنبثاق مصطلح يعود إلى المذهب الإشراقي الذي يعود بدوره إلى **أفلوطين** في نظرية الفيض..)

الفنّ الصافي يعبّر عن مثال مجرّد أو مطلق جليل (البرناسيّون) فالجليل هو مكمن الجوهر في العالم اللّامرئي (المقدّسات في الأديان والحقائق المثلى في فلسفة **أفلاطون** والنماذج العليا في فلسفة **هيوم)**

الفنّ، بالكلمات الساحرة، يكشف عن عالم سام وجليل (السرياليون، **أندريه بريتون**: السحري هو فعل كشف وإثارة.. الكلمة السحرية لها قدرتها الخاصة على الخلق)

وظيفة الكلمة خلق الجمال والسموّ والجلال (الجماليون، والكماليون، هذه الوظيفة تبدو أشدّ وضوحاً في لغة الرمزيين)

الكلمة "المقدّسة" ذات حضور جمالي مصفّى. وهي نقيض الحطّة والاسفاف لبلوغ الجمال التام والصفاء المطلق.

المطلق حالة مجرّدة لا شكل لها والكلمة المصفّاة هي أداة سيطرة على المطلق.. "الشعر في أعلى مصافيه صلاة" **(بريمون)** الشعر المصفّى والصلاة يلتقيان فوق مساحة المطلق وهما معاً يولدان من الذات المصفّاة من عكر المادّة أو مفاسدها وتشوّهاتها كي تكون لها قدرة الإرتقاء إلى المجرّد.

نطاق "الكلمة المصفّاة" يشمل كما يرى **سليم حيدر** النحت والتصوير والتطريز والموسيقى..

الكلمة في رأيه **"ليست وحدها التعبير المنطوق فالفنون لها لسانها الخاص.."** لها تعبيريّتها الخاصة..

شاهده على ذلك **"بعلبك الفنّ الناطق بالعظمة"** والموسيقى التي **"تسطّرت كلمتها رموزاً منذ أجيال.."** كما أورد في نصّه.

بعلبك الفنّ الناطق بالعظمة، كما يقول، تنتمي إلى "الفنّ الجليل" فالعظمة جلال **(كانط** ميّز بين ثلاثة أنواع من الجلال: الهائل، السامي، الرائع.. والثلاثة تنطوي على معنى العظمة.. بدوره **إدمون بيرك** يتحدّث عن الجليل

المدهش.. والعظمة تثير الدهشة.. إنّنا ندور في حقل معجم واحد للدلالة على معنى العظمة..)

الفنّ الناطق بالعظمة هو ما لا نقوى على فهمه أو السيطرة عليه لأنّه كما يقول **هيجل** لحظة إنصهار مع المطلق التي فيها يتحقّق الجمال.. إنّها لحظة استنباض الحياة في الجماد واستلال الروح منه.. حيّوية الجماد صامتة تكسر جموديّة المشهد لتندفع الحركة في كلّ مشهد، وهي حركة داخلية تنطق بالعظمة.

أمّا الموسيقى فهي أصفى درجات التعبير لذلك اعتمدها الرمزيون في التعبير عن المطلق.. "الموسيقى قبل أيّ أمر آخر" (**فيرلين**)

الموسيقى التي تسطّرت كلمتها رموزاً في رأي الدكتور **سليم حيدر** تنتمي إلى الفنّ الرمزي المصفّى من ثقل الكلمات وما فيها من مضامين محدّدة لا تتّسع لاحتواء المطلق لأنّها تبقى في حدود ما هو نسبي، في حين أنّ الموسيقى المرمّزة تشفّ عمّا هو نسبي وترقى إلى ما هو مطلقي.

الموسيقى المرمّزة هي اللغة الكونية التي تعود إلى الموسيقي **أورفيوس** كما تقول إحدى الأساطير اليونانية، قيثارته كانت تسحر بعذوبتها الحيوان فينجذب إليه والشجر يسجد له والحجر يتحرّك صوبه والأنهر تتوقف عن الجريان لسماع أنغامه.

عبارة **سليم حيدر** :" **الموسيقى تسطّرت كلمتها رموزاً منذ أجيال**" تنتمي إلى أدبيات التفسير الأورفي للأرض وارتباطه بحركة الأفلاك.. وهي أساس في أدبيات الشعر الرّمزي حيث الكلمة هي هوية إيقاعية تؤّلف عالماً من الذهول الصافي والصاخب.. (اعتمدت الرمزية موسيقى **ريتشارد فاغنر** فصفاء الشعر الرمزي شبيه بصفاء موسيقاه وصخبه شبيه بصخبه)

ربّ سائل يسأل: ما مدى قرب هذه القراءة وواقعيتّها من ثقافة الدكتور **سليم حيدر** النقدية؟

جوابي مختصر في نقتطين:

1- هذا التلاقي الفكري الذي أظهرته باتّباع المنهج التفكيكي المقارناتي بين الدكتور **سليم حيدر** وعدد من أعلام النقد الغربي ومدارسه لم يأت على سبيل التخاطر بين العقول بل وليد تفاعل ثقافي بيّن بوضوح في

نصّ له بعنوان: "الشعر بين **إبن خلدون وبول فاليري**" وهو نصّ يستحقّ بحثاً مفرداً في بابه.

2-**سليم حيدر** ناقد فنّي ممتاز لأنّه لغوي ممتاز باشر إبداعه الشعري والنقدي من خلال فهمه للكلمة، أليست الكلمة هي مفتاح الدخول إلى الحرم الفنّي بكلّ تفرّعاته حيث تتجلّى إبداعات العبقرية شعراً ونقداً؟

مهما كان الرأي في هذه القراءة فهي لا تدّعي أنّها، من خلال نصّ واحد، وعلى قصره واكتناز ما فيه من أفكار وآراء، أظهرت **سليم حيدر** صاحب نظرية نقدية مكتملة العناصر. ربّ قراءات لاحقة، يقوم بها آخرون من أساتذة جامعيين وباحثين متمرّسين بأصول النقد الفنّي ومنهجياته الحديثة، تتوافر لها سائر العناصر فتبرزها على قدر من التماسك ما يسمح أكاديمياً باعتباره مبرّزاً في مجال النقد كما هو في الشعر والفلسفة والسياسة والتربية.